

بسم الله الرحمن الرحيم

-

المملكة العربية السعودية

الجامعة الإسلامية

بالمدينة المنورة

-

"المؤتمر العالمي الثاني لتوجيه الدعوة واعداد الدعاء"

-

النزعات والدعوات القومية والشعبية منشؤها وتأثيرها
في تفرق الأمة الإسلامية وذهاب ريحها

-

للاستاذ الدكتور / بركات عبد الفتاح دويدار

الأستاذ بالدراسات العليا

كلية الشريعة : فرع العقيدة

جامعة أم القرى : مكة المكرمة

قال تعالى " وان من أمة الا خلافيها نذير " (فاطر : ٢٤)

وكان المأمول أن نرى فكرة الايمان بالمساواة هي المسيطرة على فكر
الانسانية جمعاء لا يمنع من ذلك اختلاف الأوطان أو الأشكال . ولكن الواقع فمير
هذا . اذ أن الناس لما ابتعدوا عن الايمان بتوحيد الله الذي هو اساس
دعوة الرسل ترتب على ذلك ابتعادهم عن الايمان بوحدة الانسانية فأرتفعت
طبقة بنفسها فوق ما تستحق وللأسف وجدت من بنى البشر من يصدقها ويرضى ان
ينحط بنفسه ليعيش تحت من لا يتميز عنه بشئ .

وكانت النتيجة المتوقعة عند ما يقطع الانسان صلته بربه ويخلد الى الارض
هي الذلة والتمزق والضياع كما قال تعالى " ومن يشرك بالله فكأنما خر من
السما فتخطفه الطير او تهوى به الريح فى مكان سحيق " (الحج : ٣)

وما كان هذا ليتم والأديان السابقة على الاسلام باقية على صفائها بل
انه تم بامتداد يد التفسير الى هذه الاديان او باختراع أديان من وضع الانسان
تصب فيها كل الافكار الضالة المضلة . وبذلك وجدنا الانسانية تنحدر بدل أن
ترتفع وارتفاعها كان يعنى الشعور بالانسانية كوحدة تدين بالتوحيد لله الذى
خلقها وانحدارها يعنى عدم الشعور بهذا .

وبالتالى يكون التمزق والعنصرية والشعوبية والطبقية وأمثالها .

وهذا ما وقع بالفعل ومما زاد فى شقاء الانسانية أن بعض الضالين عـزـزوا
الضلال الى أصل دينى كما يزعم اليهود انهم شعب الله المختار وكما يزعم
البراهمة الذين قسموا الشعب الى طبقات يرجعونها بزعمهم الى أصل الخلقه .

واقع البشرية بعد الكفر بما جاء من عند الله

بعد أن كفر الناس بما جاء من عند الله وجدنا أنواع التمزق بين البشرية

واليكم :-

في الديانة الهندية قسموا الشعب الى طبقات يرجعونها - كما يزعمون -
الى أصل الخلق تحت تأثير اسطورة وهمية .

وهذه الطبقات في أول الأمر عليها "البراهمة" وذلك تبعا لأسطورة في
كتبهم أن خلقتهم من رأس "برهما" . وأن هذا الاسم كناية عن القوة السماسة
"طبيعة" والرأس علاوة الحيوان فالبراهمة نقاوة الجنس ولذلك صاروا عند هم
خيرة الانس .

والطبقة التي تتلوهم "كشترى" خلقوا بزعمهم من مناكب "برهما" ويدييه
ورتبته عند رتبة البراهمة "غير متباعدة جدا . ودونهم "وييش" خلقوا من بطن
"براهما" .

والطبقة الرابعة "شودر" وقد خلقت من قدمي "براهما"

وهذه الطبقات الأربع انما هي بأصل الخلقة : أي أنه لا يمكن لواحد من
الطبقة الأدنى أن يرتفع الى الطبقة الأعلى مهما حصل من أسباب الرفعه علميا
او ماليا أو ماشابه ذلك من الأمور التي لا يعترف بها المسيطرون على الدين .

ولذلك نجد الزواج بين هذه الطبقات ممنوعا فلا يجوز لواحد من طبقة
ان يتزوج من طبقة أخرى "اذ أن امتزاج الدماء يعتبر مبدئيا جريمة من الجرائم
وهذه الطبقات يمكن أن تجمعهم مدينة أو قرية أي أنهم يمكن أن يكونوا

مختلطي المساكن .

ولكن هناك نوع من الناس غير معدودين في طبقة من الطبقات الأربع مثال
القصار والحائك ونساج الزبابيل . . الخ . .

" فلا يساكنهم الطبقات الأربع في بلدة وانما يأوون الى مساكن تقربها
وتكون خارجها .

وأما " هادى " و " دوم " و " جندال " وبرهتو " فليسوا معدودين " فى شىء
وانما يشتغلون برذالات الأعمال من تنظيف القرى وخدمتها .

وكلهم جنس واحد يميزون بالعمل كولد الزنا .

فقد ذكر أنهم يرجعون الى أب " شودر " وأم " برهمن " خرجوا منهما
بالسفاح فهم أدنى الطبقات .

ولا تجد واحدا من طبقة يواكل واحدا من طبقة اخرى فى اناء واحد
يضيف البيرونى هذا بقوله :

وكل طبقة من الأربع فانها تصطف فى المواكلة على حدة ولا يشتمل صف على
نفرين مختلفى الطبقة .

هذه هى الملامح العامة لنظام الطبقات فى الديانة الهندية وشر ما فيها
أنهم يزعمون أنها ترجع الى الدين واصل الخلقة فما كان للذى خلق من قدمى
براهما أن يتساوى مع من خلق من رأسه .

ومن يعتدى على نظام الطبقات فانما يعتدى على دينه والعقاب الذى
ينزل بهذا المعتدى انما هو باسم الدين المزعوم .

ان نظام الطبقات اخترعه الجنس الآرى وهذا النظام يدل دلالة واضحة
على رغبة السيطرة عند هذا العنصر الفاتح الذى كان كل همه الا يضيع بين
المواطنين .

إذا كان النظام فى أول أمره صادرا من بيده القوة ثم أرادوا له قوة أكثر فباسناده الى الدين وهنا بلغ من القوة أقصى ما يمكن أن يتصور فالامر يطلع اذا كان من صاحب رئاسة ويتأصل اكثر اذا جاء الخلف وساروا على نهج السلف فى هذا الامر ولم يختلفوا عليهم" ثم اذا استند ذلك الى جانب من جوانب ملة فقد توافى فيه التوأمان وكمل الأمر باجتماع ائمة الدين وليس وراء الكمال غاية تقصد" وبذلك اصبح ما زعموه دينا هو سبب شقاء الانسان واذا كان الدين هو سبب البلاء هكذا فمن ينتلر الناس العون ؟

فاذا ما تركنا الهند الى غيرها من البلاد نجد نظام الطبقات مسيطرا فى زوايا العالم تقريبا وان كان يختلف فى بلد عنه فى بلد آخر.

ففى فارس كان نظام الطبقات .

" وسير أوائل الأكاسرة تفصح بذلك فلهم فيه آثار قوة لم يقدر فيه تقرب بخدمة ولا توسل برشوة حتى أن أروشيريد بايك " عند تجديده ملك فارس جدد الطبقات وجعل الأساوره وابناء الملوك فى اولها والنساک وسدنة النيران وأرباب الدين فى ثانيتهما والاطباء والمنجمين واصحاب العلوم فى ثالثتها والزراع والصناع فى رابعتها .

ونظام الطبقات هذا فى فارس كما كان له الاثر السيء فى نظرة جماعة من الشعب الى بقية ذلك الشعب سيكون له أثره فى نظرة الفرس الى غيرهم من الشعوب. واليونانيون كانوا يرون انفسهم على صفات هى من الكمال بحيث لا يشاركون فيها غيرهم.

انهم - كما يزعمون - الصفوة وباقي الانسانية هم العبيد ولكل من

الفئتين قانونه الخاص به فى السلم والحرب .

واذا كان الشعب اليونانى يؤمن بهذا التمييز فان الفلاسفة جاءوا

لا ليخففوا عن الانسانية البلاء الذى حل بها بسبب الضلال . لم يفعل

الفلاسفة هذا بل جاءوا ليزيدوا من ويلات الانسانية بمحاولة تأصيل هذا النظام

الفساد فنجد افلاطون يتناول هذا النظام فى كتبه وبخاصة فى كتاب الجمهورية

حيث " يكيل بكيلين الواحد لليونان والآخر للأعاجم وينصح للام اليونانية ان

تتعهد فيما بينها العلاقة الودية بل أن تتحالف وتؤلف اسرة واحدة فان

تحاربت فلا تدمر ولا تحرق ولا يسحق الغالب جميع اهل المدينة المغلوبة كأنهم

اعداء بل يضرب الاقلية التى آثارت الخصام ويعامل الباقي معاملة الاصدقاء

ويقصر التدبير والتحريق والسحق على محاربة الاعاجم .

ثم يصرح بان اليونان لا يسترق بعضهم بعضا وانما يسترقون الأعاجم

لأن الرجل العدل لا يسترق قريبه وصديقه بل يسترق عدوه " .

وارسطو يرى ان التمييز بين اليونان وغيرهم يرجع الى اصل الخلق

فاليونان - على رأيه خلقوا على تقويم كامل ليكونوا سادة على سائر الخلق .

واما غيرهم وهم البرابرة فقد زودوا بقوى جسمانية وقد خلقوا على تقويم

ناقص ليكونوا عبيدا مسخرين لليونان .

ومن هنا فان الواجب على اليونان ان يسترقوا غيرهم وان يبقوا على

استرقاقهم وبذلك يتم الانسجام فى توزيع الاعمال . . اليونان للاعمال الراقية

وغيرهم وهم العبيد للاعمال الجسمانية وبذلك تعمقت الشعوبية عند اليونان

وامثالهم فتصوروا انفسهم سادة واصحاب عقول متميزة كما تصوروا غيرهم عبيدا واصحاب قوى جسمانية فما كان من اعمال الفكر فهو خاص باليونانيين وما كان من اعمال الجسم فهو خاص بغيرهم.

وفى العرب قبل الاسلام لم تكن هناك طبقات بالمعنى المعروف عند الهند ولا بالمعنى المعروف عند الغرب - ولكن كان هناك اعتزاز بالاصل الذى ينتسب اليه العربى اعتزازا بلغ حد التعصب .

وانضم الى هذا الاعتزاز بالاصل عوامل أخرى عمقت أسباب الفرقة كالنزاع الشديد الذى كان بين حمير ومضر .

وقد آثار هذا النزاع المتواصل بين حمير ومضر - فى سبيل التفوق من جهة ونيل الاستقلال من جهة أخرى - عاطفة جامحة من الحسد والبغضاء فى قلوب الفريقين وزاد فى سعيها قصائد شعرائهما الحماسية التى كانوا يشيدون فيها بايام الحرب والسلطان كفوز كنده على بنى تميم (١) وغيرها وكما كانت العرب يتعالى فريق منهم على فريق آخر منهم نراهم جميعا كانوا يتعالون على غيرهم من الامم كما سيأتى فى حادثة رفض النعمان تزويج ابنته لكسرى .

نرى الآن ان هذا التعصب الجاهلى كان يشمل أمم الأرض تقريبا وان كان الشكل يختلف من أمة الى أمة وكلما مرت الايام ازداد تمكنا فى النفوس وورثه الابناء عن الآباء حتى سد على الانسانية منافذ التفكير .

وتقليد الآباء كان هو العقبة الكؤود امام الرسل فى تغيير النفوس الى الخير لأن الرسل كلما حاولوا اصلاحا كان الجواب كما قال تعالى " بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون وكذلك ما أرسلنا من قبلك

(١) تاريخ العرب والتمدين الاسلامى سيد امير على ترجمة رياض رأفت ص ٦٥

فى قرية من نذير الا قال متفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم
مقدون قال أولو جئتم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا انا بما أرسلتم به
كافرون" (الزخرف : ٢٢ - ٢٤) .

والان نضرب بعض الامثلة كدليل على تأصل فكرة العنصرية والشعوبية
فى النفوس الجاهلية .

الحادثة الاولى :

عند ما دخل الرسول صلى الله عليه وسلم مكة فى عمرة القضاء وبعد ان
انتهى من اعمال العمرة امر بلالا فأذن بالظهور فوق ظهر الكعبة فقال عكرمة بن
أبى جهل لقد اكرم الله ابا الحكم لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول [١] وقال
صفوان بن أمية الحمد لله الذى اذهب ابى قبل ان يرى هذا . وقال خالد بن
اسيد الحمد لله الذى أمات ابى ولم يشهد هذا اليوم حين يقوم ابن ام بلال
ينهب فوق الكعبة .

وفطى سهيل بن عمرو ورجال معه وجوشهم حين سمعوا " (١)

الحادثة : هنا نرى رؤس الكفر فيهم الجاهلية باوضح معانيها .

الحادثة الثانية :

موقف كسرى عند ما وصله خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى
يدعوه فيه الى الاسلام فقد مزق كسرى الكتاب لا لأنه نرس الاسلام فلم يقتنع به
بل لأنه يرى نفسه أعلى من المرسل . فقد روى أنه قال " يكتب الى هذا
وهو عبدى " .

ومنا نرى القلوب وقد أعماها التعصب .

(١) امتاع الاسماع للمقريزى ص ٣٣٩ ومثل هذا تكرر عند ما اذن بلال فوق الكعبة
عند فتح مكة انظر نفس المصدر ص ٣٩٠ / تاريخ الطبرى .

الحادثة الثالثة :

أرسل كسرى أبرويز الى النعمان يخطب ابنته فرفض النعمان واطهر
للمرسول الموفد ان العرب تستنكف أن تزوج العجم (١)

هذه الحوادث وأمثالها تدل على تأصل عوامل الفرقة بين الشعوب
بسبب الجنس والطبقة وبعد الطبقات والأجناس دخلت الحدود الإقليمية كعامل
فرقة بين أبناء الجنس البشرى حيث تدخلت العصبية الإقليمية والقومية الضيقة مع
أن الحدود الجغرافية لم تكن - فى كثير من الأحيان - إلا خطأ وهمياً ليس فيه
إى دليل على أن الذين يقطنون على جانبه الأيمن بينهم وبين الذى يقطنون على
جانبه الأيسر اى فرقة .

بل فى كثير من الأحيان نجد أن القرابة تربط القاطنين على جانبي
الحد الفاصل بين الدولتين .

ومع كل هذا نرى القومية الضيقة التى بنيت على خطوط وهمية عاملاً من
عوامل إشعال الحروب بين المتجاورين تلك الحروب التى تقوم فى أول الأمر لأسباب
من أهمها محاولة أحد الطرفين الاستيلاء على الخير الذى فى يد الآخر
أو انتزاع جزء من بلد هذا لينضم الى بلد ذاك .

وقد تكون الحرب بسبب شخصى بين رئيسى البلدين . وتسيل الدماء
وتتعمق العداوة فى النفوس وكثيراً ما ينسى السبب الأصل لقيام الحرب ولم يعد
يذكر إلا الثأر .

(١) الشعوبية واثرها الاجتماعى والسياسى زاهية قدوره ص ٣٠

وبذلك عم الشقاء الانسانية لاسباب ليس لها وجود الا في الوهم
والله رحيم بعباده وكان من رحمته أن ارسل محمدا صلى الله عليه وسلم
ليخفف من آلام الانسانية وليزيل شقاءها .

جاء محمد صلى الله عليه وسلم ليقضى على كل نزعات القومية والشعوبية .

الاسلام والوحدة الانسانية

الاسلام هو دين الله الذي ارتضاه لعباده " ورضيت لكم الاسلام دينا "
وأول ركن في الاسلام هو التوحيد . والتوحيد في الاسلام هو التوحيد الخالص
الذي لا يشوبه شرك . الله وحده هو الخالق وهو وحده المستحق للعبادة ليس
هناك من يشاركه في الخلق وليس هناك من يشاركه في استحقاق العبادة وليس
هناك من يستحق أى لون من ألوان التعظيم غيره سبحانه يقول تعالى " يا ايها
الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم
الارض فراشا والسما بناء وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم
فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون " (البقرة : ٢١-٢٢) .

والند بكسر النون وتشديد الدال وهو نظير الشئ الذي يعارضه فى

اموره .

وروى البخارى عن عبد الله قال " سألت النبی صلى الله عليه وسلم أى

الذنب اعظم عند الله ؟ قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك . .) .

فالقرآن الكريم هنا يأتينا بأن كل شئ من الله خلق الانسان والارض

التي نسير عليها ومنها معاشنا .

وكل مدع بعد ذلك فضلا على أخيه انما هو واهم نسي هـداه ومعاده
والحديث الشريف ينبه الخلق الى ذلك ببيان نهايتهم يقول الرسول صلى الله
عليه وسلم - كما رواه البخارى عن ابي هريرة - يقبض الله الارض يوم القيامة ويطوى
السما بيمينه ثم يقول : انا الملك اين ملوك الارض ؟ " .

وفى حديث الاستخارة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول مخاطبا
ربه " . . فانك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وانت علام الغيوب " (١)
وبذلك يصل المسلم الى أن كل شىء بيد الله .

وبعد التوحيد الخالص ينتقل الاسلام بالمسلم ليعلمه أمرا آخر وهو
وحدة الـاب .

الناس جميعا لـاب واحد هو آدم .

قال تعالى " خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها " (الزمر: ٦)
وعلى ذلك اصبح لا فضل لاحد على احد من ناحية الاصل .
الله هو الخالق لكل وآدم هو الـاب للجميع .

وعندما ينظر الانسان الى نفسه لا يجد لنفسه أى عمل فيما هو عليه من
خلقه فان أصل الخلقة من الله الذى خلقكم والذين من قبلكم " وكذلك تفاصيل
الخلقة هى ايضا من الله " يا ايها الانسان ما فرك بربك الكريم الذى خلقك
فسواك فعد لك " بالتخفيف يعنى فى أى صورة شاء اما حسن واما قبيح او طويل
او قصير . . من العدل وهو الصرف الى أى صفة اراد " (٢) .

(١) فتح البارى جزء ١٣ ص ٣٧٥

(٢) نفسه جزء ٨ ص ٦٩٥

وبذلك صار الاختلاف بين الخلق في الالوان والالسنه دليل
قدرة الله تعالى وآية من آياته قال تعالى : " ومن آياته خلق السموات والأرض
واختلاف السنتكم واللوانكم ان في ذلك لايات للعالمين " (الروم : ٢٢) .

وفي ختم الاية يقول تعالى ان في ذلك لايات للعالمين " بكسر اللام
اشارة الى ان العلماء هم الذين يفهمون عظمة الله سبحانه اذ كيف يكون هذا
الاختلاف مع ان الناس كلهم من آدم .

وكون الاختلاف بين المخلوقات دليلا على عظمة الله سبحانه وان العلماء
هم الذين يدركون هذا بينه الله سبحانه في مكان آخر قال تعالى " ألم تر أن
الله انزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا اللوانها ومن اللبال جدد بيض
وحمر مختلف اللوانها وغلرابيب سود ومن الناس والدواب واللانعام مختلف اللوانه
كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور (فاطر : ٢٧-٢٨) .

واذا فان الذين يرون في اختلاف الالوان والالسنه دليلا لا على عظمة
الله بل على ارتقاء البعض وانحطاط البعض الآخر الذين يرون هذا ليسوا ممن
العلماء بل من اللجاهلين .

ويكون جهلهم أتم حين يحملون الانسان وزر لونه فيضعونه في درجة
اجتماعية معينة بسبب هذا اللون او اللجنس او المكان الذي نشأ فيه الانسان .
ان الانسان يوءزر او يوءجر على عمل قام به وكان له فيه اختيار وأى
اختيار للانسان في لونه او مشيه او لغته او مكانه .

وبذلك جاء الاسلام - وهو دين الله لخلق الله - ليبطل كل تلك
الفرقات التي ترجع الى اللجنس او اللون او المكان او اللغة وليعلن اللاخوة الكاملة
بين بنى البشر .

واذا كان هناك فوارق فان الاسلام يرجعها الى ما للانسان فيه عمل

واختيار وهو التقوى والعمل الصالح .

قال تعالى :

(يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل

لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير) " الحجرات : ١٣) .

وقد اخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يرسى هذه القواعد فـالقول

يتبعه العمل .

اخرج ابن ابى شيبه وعبد بن حميد والترمذى وابن المنذر وابـن

ابى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى شعب الايمان عن ابن عمران النبى صلى الله

عليه وسلم طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الاركان بمحجنه فلما خرج لم يجد

مناخا فنزل على ايدى الرجال فخطبهم فحمد الله واثنى عليه وقال الحمد لله

الذى اذهب عنكم عبية الجاهلية وتكبرها بآبائها .

الناس رجلا ن يرتقى كريم على الله وفاجر شقى هين على الله .

والناس بنوا آدم وخلق الله آدم من تراب قال الله :

" يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل

لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير " ثم قال : اقول قولى هذا

واستغفر الله لى ولكم .

واخرج ابن مردويه والبيهقى عن جابر بن عبد الله قال :

خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وسط ايام التشريق خطبة

الوداع ^(١) فقال يا ايها الناس الا ان ربكم واحد الا ان آباكم واحد آلا لافضل

(١) الرسول صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع خطب اكثر من خطبة جاء فى امتاع الاسماع للمقرئى ص ٢٩٥ انه خطب ثلاث خطب ثم روى عن المحب الطبرى انها خمس خطب .

لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لاسود على احمر ولا لاحمر على اسود
الا بالتقوى ان اكرمكم عند الله اتقاكم . الا هل بلغت ؟ قالوا بلى يا رسول الله
قال : فليبلغ الشاهد الغائب .

واخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن ابي هريرة ان النبي
صلى الله عليه وسلم قال : ان الله يقول يوم القيامة امرتكم فضيحتن ما عهدت اليكم
ورفعتن انسابكم فاليوم ارفع نسبي واضع انسابكم اين المتقون ؟ اين المتقون ؟
ان اكرمكم عند الله اتقاكم .

واخرج الطبراني وابن مردويه عن ابي هريرة عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال : يقول الله يوم القيامة : ايها الناس اني جعلت نسبا وجعلت نسبا .
فجعلت اكرمكم عند الله اتقاكم فأبيتم الا ان تقولوا فلان اكرم من فلان وفلان اكرم
من فلان واني اليوم ارفع نسبي واضع نسبكم الا ان اوليائي المتقون .

وأخرج البزار عن حذيفة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم " كل " آدم و آد م خلق من تراب ولينتهين قوم يفخرون بأبائهم
او ليكونن أهون على الله من الجعلان وأخرج احمد عن ابي ريحانه رضى الله عنه
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من انتسب الى تسعة اباء كفار يريد بهم
عزا وكبرا فهو عاشرهم في النار .

واخرج البخاري في الادب عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ماتعدون
الكرم وقد بين الله الكرم واكمكم عند الله اتقاكم وماتعدون الحسب ؟ أفضلكم
حسبا أحسنكم خلقا .

وروى مسلم عن مسعد بن ابي وقاص قال :

كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم اطرده هو؟ لا لا يجترئون علينا قال وكنت انا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست اسميهما فوقع في نفس النبي صلى الله عليه وسلم ما شاء الله ان يقع فحدث نفسه فانزل الله " ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه " (الانعام : ٥٢) .

بهذا وأمثاله وضع الاسلام اسس المساواة بين الناس ونفى عنهم كل ما هو من الجاهلية من التفاخر بالآباء او باللون او بأى شئ غير العمل الصالح ومن كان عمله صالحا لن يفاخر ولن يعير غيره لانه - مهما كان عمله - على خوف هل يقبل عمله او لا .

على هذا ربي الرسول صلى الله عليه وسلم اصحابه كما اراد من المسلمين جميعا ان يكونوا كذلك . والصحابة رضوان الله عليهم قد انتقلوا بهذه التربية من حال الى حال فقد رأينا الملاء من قريش لا يرضون ان يجلسوا فى مكان واحد مع من ظننوه أدنى درجة منهم .

اما بعد الاسلام فاننا نرى عمر بن الخطاب يعبر عن بلال بالسيد .

روى البخارى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال :

كان عمر يقول : ابو بكر سيدنا واعتق سيدنا يعنى بلالا .

وروى البخارى ايضا عن ابن عمر قال : " لما قدم المهاجرون الاولون

العصبة - موضع بقباء - قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان يومهم

سالم مولى ابي حذيفة وكان اكثرهم قرآنا فقبل الاسلام ما كان يرضى اكثر هو؟ لا

المؤمنين أن يجلسوا مع هذا الامام .

و بعد الاسلام تغير كل شىء فصاروا يأتون به مادام اقرأهم للقرآن

ولا التفات لشىء بعد ذلك من مفاخر الجاهلية .

اصبحوا لا يذكرون انسابهم ولا موطنهم الاصلى لان نسبهم هو الاسلام

والارض كلها وطنهم واذا ذكروا الانساب فانما يذكرونه لهدف سام .

اخرج الترمذى عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : تعلموا من أنسابكم

ما تصلون به أرحامكم فان صلة الرحم محبة فى الاهل مشراة فى المال نساء فى الاثر

ولنفرض أن رحالة مر بمكة قبل البعثة المحمدية ورأى المجتمع المكى

اين يجلس عمر ومن هو من طبقتة واين يجلس بلال ومن هو من طبقتة ثم غاب هذا

الرحالة مدة مرفيها باقطار الارض وعند رجوعه مر بمدينة رسول الله صلى الله

عليه وسلم التى انتقل اليها جل هذا المجتمع المكى بعد الهجرة ورأى الرحاله

ما صار اليه حال الناس فى المدينة المنورة . يقينا ان هذا الرحالة لن يصدق

عينه اول الامر .

لقد تغير المجتمع ليس من الظاهر بل من الداخل وما هذه الصورة

الظاهرة الا نتيجة لعقيدة دينية سيطرت على النفس البشرية فظهرتها من كل

أدران الجاهلية .

لم يعد هناك فرق بين عمر القرشى وبلال الحبشى وصهيب الرومى

ومسلمان الفارسى وعبادة بن الصامت الخزرجى واسيد بن حضير الاوسى لم تعد

هناك فوارق بسبب النسب وانما اصبح المجتمع المسلم الذى لا تفرقة فيه بسبب

اللون او الجنس او الوطن .

هذا هو المجتمع المسلم الجديد .

واخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يتعهد هذا المجتمع الجديد فطراى

شيطانا يريد ان ينفث فيه سمومه الا وخيب عليه تدبيره .

روى البخارى عن جابر بن عبد الله قال :

كنا فى غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الانصار قال الانصارى

يا للانصار وقال المهاجرى يا للمهاجرين .

فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما بال دعوى جاهلية

قالوا يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلا من الانصار فقال دعوما فانها

منتنة " .

وما كان بين الاوس والخزرج قبل الاسلام معروف وجاء الاسلام ليزيل

ما فعلته الجاهلية واصبح الاوس والخزرج اخوة فى الاسلام .

وكانت هذه الحادثة . مرشاس بن قيس اليهودى - وكان عظيم الكفر

شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم - على نفر من الانصار من الاوس

والخزرج فى مجلس لهم يتحدثون ورأى اجتماعهم والألفة التى اصبحت بينهم بعد

ان كانوا اعداء امتلاء بالغيط وعرف انه لا يمكن ان ينتصر عليهم بحرب ماداموا

مؤتلفين لابد اذا من عمل لفض اجتماعهم .

فأرسل شابا من اليهود وامره ان يجلس اليهم ويذكرهم يوم بعثت

وينشد هم بعض ما قيل فيه من الاشعار .

وأدى الشاب اليهودى مهمته كما كلف بها وعند ذلك ثارت فى القوم

الحمية الجاهلية ونادوا السلاح السلاح . وكادت المعركة تنشب بين الفريقين .

وعلم النبى صلى الله عليه وسلم بالامر فخرج مسرعا ومعه ناس من

المهاجرين والانصار حتى وصل اليهم وناداهم قائلا ابدعوى الجاهلية وانا بين

اظهركم ؟ بعد اذ هداكم الله الى الاسلام واكرمكم به وقطع به عنكم ما جاهلية واستنقذكم به من الكفر والف بينكم ترجعون الى ما كنتم عليه كفارا . .

فصرف القوم انها كانت نزعاً من الشيطان وكيد من عدوهم فالتقوا السلاح وبكوا وعانق الرجال بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونزل قوله تعالى :

" يا ايها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين وكيف تكفرون وانتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم (آل عمران : ١٠٠ - ١٠١) .

هنا نجد ان الرسول صلى الله عليه وسلم يتعهد الفرس الاسلامي فلا يترك الافات تؤذيهم .

واذا كان للجاهلية نظرة خاصة بالنسبة للعلاقة بين الناس في حياتهم اليومية من كلام وجلوس ومشاورة . . الخ . . حيث تحدد منازل للناس لا يمكن تخاطبها . اذا كان لهم هذه النظرة في هذه الامور فان ما يتعلق بالزواج يكون اشد قسوة حيث تتعمق الفوارق .

ومن هنا فان الاسلام ركز على تقريب الفوارق في هذه النقطة .

قالت عائشة رضى الله عنها : " ان ابا حذيفة بن عتبة بن ربيعة تبني سالماً وأنكحه ابنة اخيه عند ابنة الوليد بن عتبة وهو مولى لامرأة من الانصار " اخرج البخاري " وامر النبي صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت قيس ان تنكح أسامة ابن زيد مولاة فنكحها بأمره " متفق عليه .

(١) وزوج أباه زيد بن حارثة ابنة عمته زينب بنت جحش الأسدي

وجاء في سند البيهقي " امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى بياضه ان

يزوجوا أبا هند امرأة منهم فقالوا يا رسول الله : أتزوج بناتنا موالينا ؟

فأنزل الله : " يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى " الآية

وتأتى شعب الايمان كلها من شهادة الا اله الا الله الى اماطة

الأذى عن الطريق وكأنها تحرس هذا المعنى .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم الايمان بضع وسبعون اوضع وستون

شعبة أفضلها قول لا اله الا الله وادناها اماطة الأذى عن الطريق والحياة

شعبة من الايمان . (٢)

ولسناخذ الآن بعض هذه الشعب لنحاول ان ندرك بعض مافيهها من

حكم واولها شهادة الا اله الا الله .

ان الانسان الذى يشهد لله بالوحدانية شهادة خرجت من

قلب مؤمن بالله سيدرك حتما ان الناس جميعا فقراء الى ربهم وان الله هو

الغنى الحميد .

اذ لا يصح لغنى ان يفخر بشئ* وكيف يفخر من يؤمن بانه عبد الله

وراجع الى الله .

(١) عن المغنى لابن قدامة ص ٤٨٠ ج ٦

(٢) عن كتاب الايمان لابن منده ورواية البخارى الايمان بضع وستون شعبة

والحياة شعبة من الايمان .

والصلاة يقف فيها الكل متجاورين خاضعين لرب هو وحده المعبود
بحق ويسجدون جميعا على ارض واحدة يفتتحون صلاتهم بالتكبير " الله اكبر "
الله وحده لا اله غيره ويختتمون صلاتهم بالتسليم السلام عليكم .

وبذلك ينتشر السلام فى هذا المجتمع لا الفخر لان كل واحد فى هذا
المجتمع حريص على مايجعل الله يحبه خائف من كل مايجعل الله يبغضه
والله سبحانه هو القائل " . . . ان الله لا يحب كل مختال فخور " (لقمان : ١٨) .
والزكاة تجعل المال عامل جمع لا عامل تحاسد وتباغض لقد اذهبت
الزكاة الغرور بالمال من الغنى كما اذهبت الحقد عن الفقير .

والصوم يصل بصاحبه الى التقوى وفى التقوى معنى الخوف من الله .
وهل الخائف من ربه يعصيه .

ويأتى الحج الذى يجتمع فيه المسلمون من مشارق الارض ومغاربها فى
وقت واحد فى مكان واحد بلباس واحد .

ويبقى الحاج مع اخوانه يتعرف عليهم ويدرك الوحدة الحقيقية التى
تربطه باخيه مهما تباعدت الاوطان واختلفت الالسنه والالوان .

لقد ادرك غير المسلمين مايؤديه الحج من الوحدة بين المسلمين
ونأخذ هنا شهادة احدهم وهو " جب " حيث يرى ان الحج اعظم فروض الاسلام
تأثيرا فى تغذية روح الوحدة الاسلامية " ولا يمكن لمسلم اخذت روحه حظا فى
تعظيم عبادة يشارك فيها عشرات الالوف ^(١) من اخوانه المؤمنين من كل جنس

(١) اصبح الحج الان يشارك فيه اكثر من مليونين

وطائفة (فض مكه - كما يقول - تهدأ أشد العداوات الطائفية حدة وان بدى
تعصب أحيانا) أن ينسى تلك اللذة العليا التى ذاقها وما يسيطع منه اللثام من
قوة باطنة لدينه ومن انتشاره العظيم فى الافاق .

وكل من رجع من الحج يشهد لدى جماعته بالوحدة العامة التى تترفع
على القوميات الصغيرة ويصير مركزا تشع منه حماسة دينية لمثل الاسلام العليا
التي تسمو على القومية (١) هذا هو الحج يبرز الامة الاسلامية مرتبطة برباط
الدين لا يفرق بينها قوميات ولا عصبيات ولا اجناس ولا لغات .
ويكفى انك ترى هذا الجمع الكبير وليس فيه اثنان يتشاحنان برغم ازدحام
الطرق وشدة الحر واختلاف الامزجة .

واذا حصل شيء من هذا - ومن النادر ان يحصل - فانك ترى الجميع
ينظرون اليه على انه أمر شاذ يجب ان يزول بسرعة وفحلا يزول وبسرعة .
فاذا ما انتقلنا من الحج الى بقية شعب الايمان (٢) فسنجد من
الشعب التى تخص القلب الرحمة التواضع ويدخل فيه توقيير الكبير ورحمة الصغير
وترك الكبر والعجب وترك الحسد وترك الحقد وترك الغضب .

(١) وجهة الاسلام ص ٧٢

(٢) يذهب بن حجر موافقا ابن حبان - الى ان هذه الشعب تتفرع عن اعمال
القلب واعمال اللسان واعمال البدن ثم يضع تحت كل واحدة من هذه
مجموعة من شعب الايمان .

كما نجد من الشعب التي تختص باللسان . . . الاستغفار واجتناب
اللهو كما ان من الشعب التي تدخل تحت اعمال البدن الجود ويدخل فيه
اطعام الطعام واکرام الضيف وطاعة السادة والرفق بالعبيد والاصلاح بين الناس
والمعاونة على البر ويدخل فيه الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وكف الاذى
عن الناس واجتناب اللهو واماطة الاذى عن الطريق .

كل هذه الامور هي من شعب الايمان .

فصند ما يرعى المسلم شعب الايمان - وكل مسلم يسعى ان يكون ايمانه
كاملا - لن يخطر بباله لون من الوان التفرقة بسبب اللون او الجنس او اللغة . .
ويبقى العمل الصالح هو الذى يرتفع بصاحبه .

وهذه هي النتيجة المنتظرة من مسلم يؤمن بآله واحد للعالمين وبعموم
رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

" فالدعوة المحمدية قد قامت اذا على رسالة للناس كافة لعبادة الله
وحده وليكون الناس أمة واحدة والاخوة فيها اخوة العقيدة لا تفرق بين الشعوب
والقبائل والابيض والاسود والاصفر ولا الغالب والمفلوب ولا الاراضى والاوطان
بل تدعو الى اخوة حدودها البشرية تحرم الاعتداء وتدعو الى سبيل الله
بالحكمة والموعظة الحسنة حتى فى حالة النزاع مع المعتدين ورد هم عن عدوانهم
بالحرب فان فكرة الاخوة البشرية تتخذ ايضا نبراسا يهتدى به المؤمنون فى
ظلام الحرب فهم لا يحاربون للفتح ولا للسلب ولا للقهر واذلال الناس وانما الحرية
العقيدة " لا اكرهه فى الدين قد تبين الرشد من الغى " .

" وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله " . حتى فى حالة الحرب

مع الوثنيين يعتبر الاسلام الاخوة اصلا فى النزاع فالمؤمن الذى يعتقد ان الوثنية

هى أسوأ ما يصاب به الانسان فى روحه وعقله ومصيره انما يريد للوثنى ان ينجس
مما هو فيه وما هو معرض له من غضب الله .

فاذا قسا عليه ليرده عن كفره فانما يريد بذلك رحمته وهو معترف باخوته
كما قيل .

فقسا ليزد جروا ومن يك حازما * فليقس احيانا على من يرحم
وهذا الوثنى الذى يحاربه المؤمن متى كان معتمدا يستحق من المؤمن جميع الحقوق . بمجرد
تسليمه لله ويصبح مساويا له تمام المساواة .

فهو اذا لا ينازعه لنكران اخوته او لعدم الرغبة فى رحمته بل لتتام هذه
الرحمة او هذه الاخوة .^(١)

هذا هو واقع الاسلام فى نظرتة للبشرية .

ونختم هذه الفقرة بشهادتين :

الاولى لمسلم فى عهد النبوة عاصر الجاهلية والاسلام وعرفا الفرق بينهما

لانه عاش الحياتين وهو جعفر بن ابى طالب .

والثانية لمسيحي فى العصر الحديث عاش حياة غير اسلامية ورسلا سلام

وحاول ان يكون منصفا فى شهادته وهو جوستاف لوبون .

فاما جعفر بن ابى طالب فقد تكلم امام النجاشى - نيابة عن المهاجرين

الى الحبشة وردا على ما اثاره وقد قرئ - فقال :

" ايها الملك كنا قوما اهل جاهلية نعبد الاصنام ونأكل الميتة ونأتى

الفواحش ونقطع الارحام ونسى الجوار ويأكل منا القوى الضعيف فكنا على ذلك

(١) الرسالة الخالده عبد الرحمن عزام ص ٥٣ و ٥٤

حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبدَه ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وإداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات . الخ .

عنا نجد جعفر بن أبي طالب يبرز نقطا من مزايا الإسلام فيها توحيد الله وعدم اعتداء القوى على الضعيف والرحمة التي تعم الجميع وعدم الاساءة إلى الجار والاحسان إليه دون نظر إلى نسبه أو حسبه .

وأما الشهادة الثانية وهي التي كانت من جوستاف لوبون (فانه يقول :

" وتجمع بين مختلف الشعوب التي اتخذت القرآن دستورا لها وحدة اللغة والصلات التي يسفر عنها مجيئ الحجيج إلى مكة من جميع بلاد العالم الإسلامي وتجب على جميع اتباع محمد تلاوة القرآن باللغة العربية بقدر الإمكان .

واللغة العربية هي لذلك أكثر لغات العالم انتشارا على ما يحتمل .

وعلى ما بين الشعوب الإسلامية من الفروق العنصرية ترى بينها من التضامن الكبير ما يمكن جمعها به تحت علم واحد في أحد الأيام " . (١)

وهناك مسيحي آخر هو القسيس ويتبرخت " قد بين فضل الإسلام في إزالة الحواجز بين الشعوب حيث يقول في تقريره أمام مؤتمر التبشير الذي انعقد في الكونغو سنة ١٩١١ " ولنتذكر أيضا أنه وإن يكن الإسلام بقي دين

الشعوب التي هي دوننا في المدنية فان انتصاره نجحوا اكثر من الصحيحين
بازالة الحواجز التي تفصل بين الاجناس .^(١)

والواقع الذي أسسه الاسلام هو الدليل ولا يحتاج الى شهادة احد فنجد
المسلمين في اهم مسألة وهي مسألة الحكم اصبحوا بفضل الاسلام لا يتساءلون
عن عنصر واصل وانما يتساءلون عن خلق ودين .

فمن الممالك الذين وصلوا الى أعلى مناصب الدولة في مصر والبلاد
الاسلامية نجد الارمن والروسى والصقلى والكرجى والشركسى والتترى والتركى
والفرنجى والسودانى والحبشى .

ولو تعقبنا انسابهم لانكشف لنا عن جميع الوان البشر . فلم تكن الوطنية
بمعناها الحديث ولا القومية بعصبيتها الحاضرة حدا فاصلا بين الناس كما صارت
في العصور الاخيرة^(٢) هؤلاء هم المسلمون أزالوا فوارق الجنس والارض وغيرها
واستظلوا بوحدة العقيدة فنجحوا وقادوا العالم الى طريق النور .

وهم في مسيرتهم كانوا ينصتون الى قوله تعالى :

" واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله

مع الصابرين " (الانفال : ٤٦) .

ولو بقى المسلمون على وحدتهم لما استطاع عدوهم ان ينال منهم ولكن

الواقع انهم في كثير من فترات التاريخ كان كثير منهم ينصت للشيطان .

(١) الفارة على العالم الاسلامى ص ٢٢

(٢) الرسالة الخالده عبد الرحمن عزام ص ٢٠٢

رجوع النزعات القومية والشعوبية من جديد الى المسلمين

-

أدرك المسلمون أن وحدتهم سر قوتهم فتمسكوا بها . .

وأدرك العدو هذا فعمل على القضاء على هذه الوحدة .

والعدو لم يخف قصده بل صرح به في أكثر الأحيان وإن كان أخفاه في

أحيان أخرى .

والعدو قد تختلف أسماؤه باختلاف العصور ولكنه هو هو فقد يطلق عليه

اسم المنافق أو الباطني أو الالحادي وقد يطلق عليها اسم من هذه الاسماء

أو ما يشبهها ولكن المضمون واحد وهو أنه عدو وسعيه مستمر للوقية بين

المسلمين وردهم الى الجاهلية الاولى وكان المسلمون يفسدون على العدو

تدبيره في بعض المرات ويقعون فيما دبر لهم من مكيدة مرات أخرى . .

وقد تقدم لنا ما كان من " شاس بن قيس " اليهودي وتدارك الرسول

صلى الله عليه وسلم للامر ومن المرات التي تنبه فيها المسلمون ما جاء على لسان

كعب بن مالك حين تخلف عن غزوة تبوك هو وصاحباؤه ونهى رسول الله صلى الله

عليه وسلم الناس عن كلامهم يقول كعب .

فبينما أنا أمشي بسوق المدينة اذا نبطى من أنباط أهل الشام ممن قدم

بالطعام يبيعه بالمدينة يقول :

من يدل على كعب بن مالك ؟

فطفق الناس يشيرون له حتى اذا جاءني دفع الى كتابا من ملك غسان

فاذا فيه اما بعد فانه قد بلغني ان صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار

هوان ولا مضية فالحق بنا نواسك .

فقلت لما قرأتها وهذا ايضا من البلاء فتيممت بها التنور فسجرت بهـا
" رواه البخارى . "

هنا نجد مسلما صادق الاسلام ولم يرضى ان يسمع العدو و برغم الشدة
التي هو فيها وما كان يدري متى الفرج . وهو يعيش فى مجتمع يقاطعه بكل انواع
المقاطعة وطال به الوقت وكان فى حال وصفها الله تعالى بقوله " حتى اذا
ضائق عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم " ولكنهم مع هذا لم يفقدوا
ايمانهم بالله بل عند ما انقطع املمهم من المخلوق بقى يقينهم فى الخالق
" ولئنوا الا ملجأ من الله الا اليه " .

ان الذين وصل بهم اليقين الى هذه الدرجة لا يمكن ان ينال منهم
عدو ولكن هل كان المسلمون دائما مثل كعب ابن مالك وصاحبيه ؟ الواقع لا .
ولذلك استطاع العدو ان يدخل بينهم . ووجدنا العصبية تعود من
جديد بين المسلمين ووقع ما حذر الرسول صلى الله عليه وسلم منه فكان بين
القبائل العربية فى الاسلام ما يشبه ولو من بعض الوجوه ما كان فى الجاهلية .
يقول المسمودى " وافتخرت نزار على اليمن وافتخرت اليمن على نزار
وأدلى كل فريق بما له من المناقب وتحزبت الناس وثارَت العصبية فى البدو والحضر^(١)
تم نحو هذا بين العرب والعجم ونجد اشخاصا مشهورين بالشعوبية
مثل بشار بن برد .

واذا كان كعب بن مالك " يرمى برسالة ملك غسان فى التنور ويجد أن
الملك غسان فيه انه سيحييه . هذا الظن من البلاء الذى نزل بكعب - كما يقول -

(١) نقلا عن ضحى الاسلام ص ٢٢ ج ١

إذا كان هذا من كعب بن مالك فأننا نجد ان النفوس قد تغيرت ليذهب
بعض المسلمين للتعاون مع الصليبيين^(١) ويتم اكتشاف جماعة من الباطنية عند
خيمة صلاح الدين في جوف معسكره يريدون الفتك به فيقرر قتلهم^(٢).
ولم تكن معركة الشعوبية سرية بل صارت علنية ووجدنا من يؤلف فيها
الكتب خذ مثلاً على ذلك "علان" الشعوبى يقول عنه ابن النديم "وهو علان الشعوبى
أصله من الفرس وكان رواية عارفاً بالانساب والمثالب والمناقب منقطعاً الى البرامكة
وينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة .
عمل كتاب الميدان في المثالب الذى هتك العرب وأظهر مثالبها وكان
قد عمل كتاباً لم يتمه سماه الحلية انقرض أثره كذا قرأت بخط ابن شاهن الاخبارى
له من الكتب كتاب المثالب ويحتوى على مثالب قريش : صناعات قريش وتجاراتهم
مثالب تميم بن مره بن كعب مثالب بنى أسد بن عبد العزى مثالب بنى مخزوم
ابن يقظة بن مرة بن كعب . . . " الى آخر ما ذكره ابن النديم وإذا كانت
العقيدة الاسلامية هى التى قضت على الشعوبية والعنصرية فأننا نجد أنه كلما
ضعفت العقيدة كان انتشار هذا الزعماء بين المسلمين وكثرت الحركات
الشعوبية وتحركت فى النفوس أنواع من الجاهلية القديمة والامثلة على ذلك كثيرة
يطول ذكرها .

(١) انظر الفتاوى ص ١٣٨ ج ٣٥

(٢) ارجع الى تاريخ الحروب الصليبية ص ٩٤٩ ج ٢ تأليف ستيفن

ولنضرب لذلك مثلاً بالراونديه " الذين (كانوا) يعملون على تحويل
الخلافة الى ملك كسرى كما كان ينظر اليهم باعتبارهم زنادقة يرون أن تصود
المجوسية او شكل من أشكالها كالزرادشتية او المانوية او المزدكية او غيرها^(١).
وكان من مبادئ الخرمية الاساسية تحويل الملك من العرب المسلمين
الى الفرس والمجوس وهم بذلك قد اثاروا حرباً شعواء على الاسلام والعرب^(٢).
واخذت العادات الجاهلية تسيطر على النفوس من جديد فقد " زاد النفوذ
الفارسي في الدولة العباسية حتى شمل كل مظاهر الحياة في العصر العباسي
وبلغ الذروة في عهد هارون الرشيد . وفي بغداد اخذ الميل للازياء الفارسية
ينمو ويطر واحتفل بالاعیاد والفارسية القديمه وخاصة بالنوروز والمهرجان والرام .
واتخذ رجال البلاط العباسي العادات الفارسية القديمه^(٣).
وكان أكاسرة الفرس والخلفاء العباسيون من بعدهم يحتفلون بالنوروز في
أول العام وفي اخره بالمهرجان ويسمونه " روز مهر " ومعناه محبة الروح وكان من
اكبر اعيادهم فقد اثر عن سلمان الفارسي انه قال : " كنا على عهد الفرس نقول :
انه الله اخرج زينة لعباده من الياقوت في النوروز ومن الزبرجد في المهرجان
ففضلهما على غيرهما من الايام كفضل الياقوت والزبرجد على سائر الجواهر " وكان
الفرس يتخذون المهرجان " دلبلا على نهاية العام والنوروز دليلاً على بدايته
ويوافق اول عيد المهرجان اول الشتاء .

(١) تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي حسن ابراهيم حسن ص ١٠٥ ج ٢

(٢) نفسه ص ١٠٩

(٣) نفسه ص ٤٣٤

ومن اصحاب العادات الجاهلية ما ذكره الطبرى فى تاريخه عن محاكمة
الافشين أنه كان يسمح للناس عند الكتابة اليه ان يكتبوا ما معناه الى الهالاهية
من عبده فلان بن فلان ولما سأله محمد بن عبد الملك الزيات فى ذلك قائلاً
والصلمون يحتملون ان يقال لهم هذا فما أبقيت لفرعون حين قال لقومه : أننا
ربكم الاعلى ؟

قال : كانت هذه عادة القوم لابی وجدى ولى قبل أن أدخل الاسلام
فكرهت أن اضع نفسى دونهم فتفسد على طاعتهم (١)

فنجده هنا يفضل ما كان من ميراث قومه على ما جاء به الاسلام اين هذا
من عمر بن الخطاب الذى يقول - وهو القرشى - " أبو بكر سيدنا واعتق سيدنا
يعنى بلالا .

ويبدو أن التعصب اصبح عدوى تنتقل من مجال الى مجال حتى أصاب
المنتسبين الى الدين باسم الدين - كما يزعمون (- فوجدنا التعصب للمذهب
حتى اخرج بعض اصحاب المذاهب مخالفهم من الاسلام .

فقد بلغ من ايذاء بعض المتعصبين لبعض فى طرابلس الشام فى آخر
القرن الماضى أن ذهب بعض شيوخ الشافعية الى المفتى وهو رئيس العلماء
وقال له : قسم المساجد بيننا وبين الحنفية فان فلانا من فقائهم يعدنا كأهل
الذمة بما اذاع فى هذه الايام من خلافهم فى تزوج الرجل الحنفى بالمرأة
الشافعية .

(١) عن نفس المصدر ص ٤٥٩

وقول بعضهم: لا يصح لأنها تشك في إيمانها يعني أن الشافعية وغيرهم
من الأشعرية يجوزون أن يقول المسلم: أنا مؤمن أن شاء الله وقول آخرين
يصح نكاحها قياساً على الذمية (١).

(١) عن المقدمة التي كتبها شبيب أرسلان لكتاب المغنى لابن قدامة ص ١٨

الشعوبية والقومية فى العصر الحديث

عداوة أوروبا للإسلام وتفنى أوروبا فى الكيد للإسلام والمسلمين هذه كلها أمور لا شك فيها وأوروبا تمتاز بأنها لا تنسى أبداً بل هى دائماً تحاول الانتقام بكل ما يصادفها أثناء مسيرتها فى الحياة فإذا ما صادفت عقبة فى موة من المرات فإنها تحاول بكل جهدها أن تقضى عليها أو تتجنبها فى المرات الآتية .

وكان هذا هو الأجدر بالمسلم لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول " لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

فكان على المؤمن أن يعلم عاقبة التفرق ويقرأ التاريخ ليزداد معرفته ولكن الواقع أن العدو يستفيد من دروس التاريخ أكثر منا .

لقد التقى الصليبيون بالمسلمين فى الحروب الصليبية وكانت النتيجة هزيمة أوروبا الصليبية أمام المسلمين .

ولاشك أن أوروبا بدأت تستعيد الذكريات : فى الماضى دولة أوربية واحدة هى اليونان بقيادة الإسكندر هزمت الشرق كله .

ومن قبل الإسكندر ومن بعد الإسكندر تعودت أوروبا أن تنتصر حتى الروم التى انهزمت أمام الفرس وأوائل زمن البعثة المحمدية - استعادت قوتها لتنتصر من جديد على الفرس .

أوروبا هذه مجتمعة تنهزم أمام الشرق المسلم بعد أن حاولت خلال مائتى عام أن تثبت أقدامها فى الشرق فى بلاد الإسلام .

لقد ضاعت غطرسة الرجل الأوربى واضطرب أن يعترف بأن المسلم لا يترك ثأره بل لا بد أن يسترد كرامته أن قد وهزم فى بعض المرات .

يقول مؤرخ صليبي عن صلاح الدين وانتصاراته .
وسواء أكانت انتصاراته ترجع الى رد الفعل الحتمي عند المسلمين على تحدى
الفرنج الدخلاء ام ترجع الى ما اشتهر به كبار الزعماء الذين سبقوه من سياسية
بعيدة النظر ام ترجع الى ما وقع بين الفرنج انفسهم من منازعات وحماقات ام ترجع
الى شخصيته . فانه اثبت بالدليل القاطع مالى الشرق من قوة وروح .
ففى وقعة " قرون حطين " وعلى ابواب بيت المقدس انتقم صلاح الدين
لما حدث فى الحرب الصليبية الاولى من المهانة والاذلال .
واثبت كيف يحتفل الرجل الشريف بانتصاره^(١) اذا كان هذا هو اعتراف
اوروبا واذا كانت اوروبا تستعيد الذكريات لتنتفع بها وتأخذ من التاريخ عبرة
اذا كان هذا هكذا فان اوروبا بدأت تدرس اسباب هزيمتها وانتصار المسلمين .
وكان من هذه الاسباب التى توصلت اليها اوروبا سبب يهمنى هنا وهو
اتحاد المسلمين وتفرق اوربا او بمعنى آخر انصهار المسلمين فى وحدة اسلامية
وتفرق اوربا بحسب القوميات و" يورجيه " الذى يذكر هذا السبب يعدد الاجناس
التي كان يتكون منها جيش الصليبيين ثم يقول مقارنا بين حالها وحال
الجيش الاسلامي : " كيف يمكن ان يتم النصر لهذا الخليط العجيب على
الشعوب الاسلامية التى كانت تتكون وتتكتل فى مجموعة قوية الايمان والانسجام
وفنية بما لها ورجالها وحضارتها^(٢) .

(١) تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٦٤ و ٦٥ ج ٢

(٢) عن كتاب الديانات والحضارات طها لمدور بيروت ١٩٥٦ ص ٤٣

اوربا خليط مفكك والمسلمون تجتمع لهم اسباب القوة قوة الايمان والانسجام
ولفنى بالمال والرجال والحضارة . هذه واحدة . والثانية ان اوربا بعهد
الحروب الصليبية اصطلت بنار الحروب التى قامت بين دولها من اجل القوميات
" وقد مرقنان على الاقل على اوريا وقد غرقت فى دماء حروبها لتعديـل
الحدود وتحرير الاقليات بين الفرنسيين والالمان وبين هؤلاء والنساويين
وبين هؤلاء وهؤلاء والصقالبه وبين النسا واطاليا وبين البلقانيين وبينهم
وبين الدولة العثمانية وبين روسيا وجيرانها من الغرب والشرق والجنوب
وبين التشيك والبولنديين والمجر والرومانيين .

وهكذا نجد النزاع على ما يسمى الوطن وحدوده قائما لا يستقر بـل
يتزايد على مدى الايام وعلى قدر الحدة فى العنصرية والوطنية . (١)

اذا اوربا اصطلت بنار القوميات مرات من اهمها مرتان الاولى حين
كانت السبب فى هزيمتها امام المسلمين الثانية حين كانت السبب فى حروب
استمرت اكثر من قرنين بين دول اوربا واغرقت اوربا فى دماء ما كانت تسيل لولا
داء القوميات .

عرف العدو كل هذه الدروس واستوعبها وفكر ووضع خططه ليرمى المسلمين
بهذا الداء الذى ما اصاب امة الا وقتلها وهو داء التفرق واقرب طريق اليه هو
احياء القوميات والعداوات القديمة . والعدو لم يضيع وقته بل بدأ مباشرة فى
التنفيذ ومن العجيب انه صرح بقصده فى اكثر من مناسبة . ولكن يبدو ان العالم
الاسلامى فى ذلك الوقت كان مهياً لقبول اى شىء فـالجسم متى ضعف اصبح قابلاً
لتأثير كل مكروب .

واليك خطط العدو وتصريحاته لتفريق المسلمين واحياء القوميات يقول
" جود فروى -x- ومونيين " عن عمل فرنسا في المغرب فيما يخص التعليم
من الخطر ان نترك كتلة ملتحمة من المغاربة تتكون ولغتها واحدة وانظمتها
واحدة . لا بد ان نستعمل - لفائدتنا - العبارة القديمة " فرق تسد " ان وجود
العنصر البربري هو آلة مفيدة لموازنة العنصر العربي ويمكننا ان نستخدمه ضد
المحزن (الحكومة) نفسه " ولكي يعمقوا الفروق بين البربر والعرب حاولوا ان
يقضوا على وحدة الدين واللغة . كتب " جلاى " احد موظفى الاقامة العامة
بعنوان " المدرسة الفرنسية لدى البربر " ما يأتى . . يجب ان نحذف تعليم
الديانة الاسلامية واللغة العربية من مدارس البربر وان تكتب اللهجات البربرية
بحروف لاتينية ^(١) ومن الخطوات العظيمة الاخرى التى اتخذت للتفريق بين
العرب والبربر وجعل كيان مستقل لكل منهما ان " استصدرت فرنسا من السلطان
عام ١٩٣٠ مرسوما عرف بالظهير البربرى ينص على الاعتراف بكيان بربرى مفترق
عن الكيان العربى وبعادات وتقاليد بربرية مفترقة عن العادات والتقاليد العربية
الاسلامية وتأليف هيئات قبائلية باسم الجماعات للنظر فى شئون القبائل البربرية .
ووفق عاداتها وتقاليدها القديمة وجعل لكل جماعة سكرتيرا فرنسيا ليكون الموحى
النافذ فى مختلف هذه الشئون . وذلك تنفيذا لخطة التفريق بين سكان
مراكش الذين غدوا شعبا واحدا طابعه العام العروبة والاسلام وآثاره النعرات
بينهم وسلخ القبائل البربرية عن الاسلام والعروبة وتهيئة المجال للتبشير بالنصرانية
بينها مرفقا بدعاية اهل البربر الاوربي وديانتهم المسيحية وكون العروبة والاسلام
اجنبيين عنهم وهى نفس الخطة التى سارت عليها فى الجزائر " . وقد استعملت
(١) الحركات الاستقلالية فى المغرب علال الفارسي ص ١٦٢ و ١٦٣

كل الاساليب لسلخ الجزائر عن الوطن العربى وكان مما سلكته فى هذا السبيل
اغراء الجزائريين كى يطلبوا الحصول على الجنسية الفرنسية كى يتمتعوا بكل
الحقوق الفرنسية .

والجزائري متى حصل على هذه الجنسية يشترط فيه ان يخضع خضوعا
كاملا للقانون الفرنسى من زواج وطلاق وميراث ومعاملات وبذلك ينسلخ نهائيا
من عروبه واسلامه . " وهذا بالاضافة الى ما ضربته من ستار حديدى كثيف حول
الجزائر لتمنع أى اتصال بينها وبين الاقطار العربية الاخرى " المفربية منها
والمشرقية حتى تظل فى عزلة تامة عن اى حركة عربية .

وقد وصل هذا الامر الى فريضة الحج حيث انها تشدد فى السماح بها
كل الشدة وتجعلها مقيدة بكثير من القيود والشروط واذا سمحت احيانا فانها
لا تسمح الا للموالين لها وتحت اشراف موظفين تثق فى ولائهم لها ايضا (١)
وبذلك حاولت فرنسا - عمليا - نشر القوميات الضيقة لتجزئة الامة العربية
والاسلامية الى اجزاء وعندئذ تضمن - كما توهمت - انعدام الوحدة بين العالم
الاسلامى وذهاب قوته . ولم يكن الفرنسيون وحدهم فى هذا الميدان بل وجدنا
الانجليز يعملون لنفس الهدف فى وادى النيل " اخذوا يبذلون الجهود الكبيرة
فى دس الدسائس علنا وسرا لاثارة البلبلة والفت بين مختلف فئات السودان جنوبية
وشماله ثم بينه وبين مصر لجعله بناءى عن تقرير الاتحاد مع مصر ويخاف منه ويجعل
الجنوب يطلب الانفصال عن الشمال ويخاف منه . واثاروا مطامع ومخاوف بعض الزعماء
فى الوقت نفسه . ولم يقصروا فى اضطهاد كل من يتظاهروا الى الاتحاد مع مصر
او بقاء وحدة الجنوب والشمال (٢) وفى جنوب شرق اسيا ترى القسيس "سيمون

عندما يقدم تقريره الى مؤتمر "لكنو" التبشيري سنة ١٩١١ يبين عوامل الوحدة عند المسلمين التي من أهمها العقيدة والحج ثم يقول رداً على آمال المسلمين : "ولكن عبثاً يبني هؤلاء آمالهم على الجامعة الاسلامية لان التربية النصرانية قد انبثت في دمائهم بفعل مدارس التبشير وباحتياطات استخدمتها حكومة هولنده من اصول الدين النصراني ومن شأنها ان تززع آمال المسلمين الباطلة . وقال بعد هذا في ختام تقريره : ان العامل الذي جمع هذه الشعوب وربطها برابطة الجماعة الاسلامية هو الحق الذي يضمه سكان البلاد الفاتحين الاوربيين ولكن المحبة التي تبثها ارساليات التبشير النصرانية ستضعف هذه الرابطة وتوجد روابط جديدة تحت ظل الفاتح الاجنبي^(١) وبذلك يظهر لنا ان العدو يستغل كل شيء لتفتيت وحدة المسلمين حتى المحبة التي يزعمون أنهم ينشرونها كانت لهدف وهو ان يرتبط المسلم بهم بدل ان يرتبط باخوته من المسلمين .

وننتقل الى عمل آخر استغل ضد الوحدة وهو البحث عن الآثاران هذا العمل يبدو في ظاهره علميا ولكن اعداء الاسلام لم يرضوا أن تفوتهم الفرصة هنا بل قد استغلوها .

ان الانسان دائما له مثل اعلى يرتبط به والمسلم - تبعا لعقيدته - مثله الاعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه من بعده ومن شذ عن ذلك كان بسبب ان العقيدة لم تتمكن من قلبه وهم قلة لا تخلو منهم أمة ولكن العدو اراد ان يجعل هذا - اى اتخاذ مثل اعلى غير اسلامي - هو السمة العامة بين المسلمين حتى يكون لكل شعب مثله الاعلى الذي يختلف عما هو عند شعب

آخر وفتش ووجد ضالته في حركة البحث عن الآثار .

(١) الفاره على العالم الاسلامي ص ٦٢ و٦٣

فعند ما تم اكتشاف آثار في معظم البلاد الإسلامية تغيرت افكار كثير

من اهل هذه البلاد فاخذوا ينظرون الى اجدادهم وهم صانعوا هذه الاثار

نظرة اعجاب وتقدير وبالغ البعض فنسى فخره باسلامه اوعلى الاقل ضعف حماسة له

واتجه الى من اعتقد هم صانعي المجد يفخر بهم .

واستغل العدو نار هذا الحماس بالمبالغة في عظمة هؤلاء الاجداد

وانهم ساهموا في بناء المدنية الإسلامية وبرغم ظهور سوء النية هذه لم يستطع

احد ان يقول هنا خطر ولو قالها احد لرد عليه ابناؤه وطنه قبل غيرهم ولنظروا

اليه نظرتهم لانسان لايعنى مايقول . حيث يسلب بلده مجدا - كما يزعم اهل

الفخر بالاجداد - اثبتته الآثار وهذا الخطر وقع فيه معظم البلاد الإسلامية

ووجدنا الفخر عند كل بلد بما كان قبل الاسلام وهنا نرى كل بلد اسلامي يفخر

على الآخر وهو لايدري انه يقطع روابط اسلامية كانت هي الاجدر بالبقاء .

وبعد اكتشاف الآثار كان تأليف الكتب فيها وكان تدريس هذه الكتب

في المدارس وامسك الطفل بهذه الكتب وهو لا زال يحبو نحو المعرفة وعرفوه ان

هذا مجده ومجد آباءه واجداده .

ولا يخلو كتاب من هذه الكتب من بيان فضل هذا البلد على غيره من

البلدان وبذلك نكون قد ربينا الطفل منذ نعومة اظفاره على الاقليمية الضيقة

شعرنا أم لم نشعر . فاذا ما جاءت بعد ذلك الدروس الدينية التي تدعو الى

أمة واحدة فان هذه الدروس تجد فكرة القومية الضيقة قد تمكنت من عقل الطفل

واصبح كما يقول الشاعر:

أتانى هواها قبل ان اعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

واذا كنا لا ندرك هذه النتيجة فان العدو قد ادركها منذ زمن بعيد
واخذ يبني عليها نتائج توصل اليها فعلا . ولننظر الى تعليق " ك . ك . هـج " ^(١)
على الكشف التي قام بها الغرب في اندونيسيا حيث بين أن : " الضرر الذي
عاد على مسلمي اندونيسيا انهم كانوا اولاً ياخذون مثلهم العليا من المسلمين .
وبذلك كانوا يقتدون بالمسلم سواء كان صحابيا او غيره في كل ما يتعلق بالاسلام
وهذا يربطهم دائما بدينهم .

اما بعد هذه الاكتشافات فقد تغير الامر واتخذ الشبان الجاويون
كما يقول مثلا عليا في البطولة من شخصيات التاريخ الغابر ^(٢) وبذلك وضع
ضرا لم ننتبه نحن الا مؤخرا .

وانني اختتم هذا الكلام في قصد العدو بما جاء في مذكرات اغا خان عن
ضباط بريطانيا الذين شجعوا الحركة القومية للوقوف امام فكرة الدولة الاسلامية
يقول " اما لورانس " منفذ سياسة بريطانيا آنذاك فيقول مصورا ذلك الهدف في
كتابة " اعمدة الحكم " . واخذت طول الطريق افكر في سوريا وفي الحج واتساءل
هل تغلب القومية ذات يوم على النزعة الدينية وهل يغلب الاعتقاد الوطني
الاعتقاد الديني .

وبمعنى أوضح هل تحل المثل العليا السياسية محل الوحي والالهام وتستبدل
سوريا مثلها الاعلى الوطني ؟ هذا ما كان يجول في خاطري طول الطريق ^(٢)

(١) انظر الى البحث الذي كتبه في كتاب وجهة الاسلام
(٢) عن كتاب معالم الثقافة الاسلامية تأليف الدكتور عبد الكريم عثمان

هذا هو لورانس وكم من لورانس كان بالبلاد الاسلامية وما كانوا يريدونـه

قد تحقق بالفعل .

وبعد :

فقد اصبحنا امام المشكلة وجها لوجه واصبح واجبنا الاول ان نحاول الخروج
والا كنا اول من يجنى الثمرة المرة التى تثمرها تلك الشجرة الخبيثة مع يقينى
اننا بدأنا من مدة نجنى هذه الثمرة .

ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا ونحن
حين نحاسب انفسنا لنعرف كيف وصلنا الى ما نحن فيه سندرك الخطوات التى
قطعناها حتى وصلنا الى ماوصلنا اليه .

وستكون اول نتيجة لمحاسبة انفسنا هو ان نعرف اننا مذنبون فاذا ماوصلنا
الى هذا فاننا يجب الا نقف طويلا عند هذا بل يجب ان نعرف مباشرة ان اول
مايجب على المذنب هو التوبة .

والتوبة من شروطها الندم والاقلاع عن الذنب والذنب هنا كان فى سلوك
اسباب الشعوبية والقومية والاقلاع عن الذنب هو ترك الاخذ بهذه الاسباب مع
الاخذ بالاسباب التى اوصلت اول هذه الامة الى وحدتهم التى كانت سبب
عزهم ونجاتهم فى الدنيا والاخرة والامر ممكن ولكنه ليس بالسهل .

وهذه بعض الخطوات التى يمكن الاخذ بها :

اولا : على الاشخاص الذين انتفعوا بالشعوبية والقومية ان يتقوا الله وان يضحوا

بتلك المصالح الدنيوية طمعا فيما عند الله .

ثانيا : بالنسبة لمناهج التعليم يجب تطهيرها من كل ما يدعو - تصريحاً
او اشارة - للقوميات الضيقة حتى ينشأ الصغار على وحدة الامة لاعلى
تفرقها .

ثالثا : اصدار فتوى اجماعية من علماء المسلمين تبين الحكم الشرعى فى مسن
يدعو الى القوميات وفى من يفخر بما كان فى الجاهلية على ان تصدر
الكتب المقرره وبخاصة كتب التاريخ والجغرافيا بهذه الفتوى .

رابعا : ان ينأى العلماء بانفسهم عما يحصل بين البلاد الاسلاميه من منازعات
حتى يكون اجتماع العلماء دليلا امام المسلمين على وحدة الامة .
وان يكون عمل العلماء الاول هو اصلاح ذات البين .

خامسا : وضع خطة يقوم بها العلماء وتنفذ اثناء فترة الحج لبيان وحدة الامة
مهما اختلفت البلاد والالسنه والالوان . .

هذا (وكفى بربك هاديا ونصيرا) .